واقع العربية بين مخلفات الماضي وتراكمات الحاضر

- دراسة نقدية -

د. عدنان حسين العوادي

أولا - تمهيد في اللغة - حياتها ووظيفتها :

يتفق المعنيون باللغة , من مختلف الميادين , على اثرها الخطير في الحياة العملية والعقلية للافراد والجماعات , فهذه المنظومة المعقدة من العلامات التي لاتظير لغوائيها انما انتجها النشاط الانساني بدء , تعبيرا عن الطبيعة الخلاقة لذلك النشاط ذاته . ومهما قيل في اصل اللغة , فان الفعل اللغوي الاساسي في تاريخ التطور الانساني , كان حين احس الانسان بقدرته على ان يتحول بعلاقته مع اشياء العالم الى نسق من العلامات التي لها قيمة رمزية وكانت تلك الرموز اصواتا نطوقة متعارفا عليها , هي الكلمات التي لها من بعض الوجوه , مايشبه وظيفة النقود عندما استعيض بها عن الاشياء المتبادلة (١) . ومنذ ذلك الحين غدا الفكر واللغة لاغنى لاحدهما عن الاخر , فأي نشاط فكري او عمل من اعمال السلوك الجماعي لابد ان يشمل على اتصال بطريقة ما ,ظاهرة ما, او خفية (٢) ولاشك في ان ابلغ انواع الاتصال هي اللغة " من حيث انها وسيلة يمسح بها العقل الجماعي... شعوريا " (٣) وعليه فان "اللغة في كل مرحلة من تاريخها تحدوها حاجات الانسان في المجتمع , وانها بدورها , تحدو عقله وسلوكه" (٤) . لقد دهش الانسان - و هو الذي اخترع اللغة - من سطوة الكلمات وقدرتها على استحضار الاشياء وتذكرها والنفاذ الى خفاياها , فضلاً عن قدرتها على تنظيم نشاطه العملي وتوجيهه حتى رأى فيها قوة خارقة تجمع بين رقية السحر وشعيرة الدين وايقاع الشعر وتلك كانت مظاهر معرفته بالعالم . وبالتدريج , صار للكلمات سلطان عليه يكاد يذكر بسلطان الآلهة التي خلقها ثم ماليث ان دان لها . على ان اتساع مناحي النشاط الانساني وتعدد مستوياته قد حفز الانسان الى ادراك اسس لطبيعة اللغة ووظيفتها , فقلل بذلك من رجحان الطابع الانفعالي - الغيبي للنشاط اللغوي في عصوره القديمة , ونحا به نحوا عقلانيا , عمق من الوعي بالحقيقة الاجتماعية للغة . وربما كان اعظم تجل لهذا الادراك قد تمثل في اختراع الكتابة وما آلت اليه من تطور عظيم اتاح لاعرق الحضارات ان تشهد على خلودها الابعد شاوا, بالكلمات وكانت الحضارة العربية الاسلامية على راس تلك الحضارات التي شهد تراث لغوي عز نظيره .

لقد ارتبط التطور اللغوي بالتطور التاريخي , المادي والروحي للمجتمعات ولما لم تكن وتائر هذا التطور واحدة فمن غير الطبيعي ان تتخذ اللغة مسارا واحدا في تطورها كما ان من غير الممكن ان تكون هناك" لغة متكاملة قدت في عهد سحيق مما قبل التاريخ" او ان يقال بوجود لغة ثابتة لاتتغير (٥) , ونظرا للعلاقة التي لاتحد بين تطور

المجتمع وتطور اللغة فقد امكن ان ينظر الى تاريخ اللغة على انه ملازمة على تاريخ حضارة مجتمعها وان ينظر من ثم الى تراجع طبيعة اللغة ووظيفتها. (٦) على ان هذه النظرة تقتضي بالمقابل الى نتيجة مؤداها ان لكل لغة نظامها . كما ان لكل حضارة خصوصيتها . وحتى تلك اللغات التي تنتمي الى اسرة واحدة, كاللغات السامية مثلا ,فان التطور المستقل لكل منها قد ينجم عنه اختلافات اكيدة فيما بينها وعليه فلا ينبغي ان يغيب الفرق بين اللغة التي هي نظام من الرموز الصوتية يشتمل على مجموع الامكانيات التعبيرية في الجماعة اللغوية وبين الكلام الذي هو الكيفية الفردية في اختيار عناصر محدودة من تلك الامكانيات التعبيرية العامة (٧).

لقد ظل تطور اللغة والوعي يدورها يطرد مع التطور العام للمجتمعات البشرية بيد ان اعظم مراحل هذا التطور اهمية قد تزامن مع ظهور العالم الصناعي الحديث فقد اتسع مجال الاستخدام اللغوي بشكل لامثيل له مع تطور وسائل النشر والاعلام وارتقاء انظمة الاتصال وخلال ذلك كان البحث في علاقة اللغة بالفكر قد قطع شوطا بعيدا حتى ذهبت بعض الدراسات اللغوية الى القول : بأن منظومة لغوية ما .. تؤثر في طريقة رؤية اهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له وبالتالي في طريقة تفكيرهم .. الشيء الذي يعني ان اللغة التي تحدد قدرتنا على الكلام هي نفسها التي تحدد قدرتنا على التفكير (٨) وقد كان ذلك كله وراء التطور الذي احرزته مناهج دراسة اللغة والذي كان من ثماره ظهور علم اللغة الحديث (٩) بفروعه العديدة (١٠)

لقد اتسع ميدان البحث اللغوي في الغرب حتى شمل لغات بدائية ولغات بائدة وصار الوعي سمة المجتمعات الحديثة التي تولي لغاتها عناية فائقة تتمثل في درسها وتنميتها ونشرها والتصدي للتحديات التي قد تواجهها ولاعجب فاللغة ارقى مظهر لخصوصية الثقافة ومن الطبيعي ان ترى فيها المجتمعات المتطورة رمزا لهويتها القومية . هذا على حين تعاني العربية من خلل منطاقم يعيق تطورها ويحول بينها وبين بلوغ مكانتها في الحضارة المعاصرة اذ هي من بين اوسع اللغات انتشارا (١١) كما انها من بين اعرق لغات التراث الحضاري فضلا عن انها لغة القرآن الكريم الذي يدين به مسلمو العالم .

ان مهمة هذا البحث ان يكشف عن مواضع الخلل في واقع العربية اليوم ولكن لما كان البعض من اصول هذا الخلل يضرب بجذوره في الماضي فان علينا ان ننظر اولا في تاريخ العربية ومنحى تطورها كي يكون ذلك سبيلا الى تشكيل صورة جلية القسمات لواقع العربية الراهن .

ثانيا – العربية – صورة تاريخية :

(١)

تمثل اللغة قوام الشخصية العربية فهي. اشبه ما تكون بـ "سلطة" يستمد منها العربي قوته مثلما تستمد هي قوتها مما تمارسه على شخصيته من نفوذ . وفي معجم " لسان العرب " الذي جمع اضخم مادة لغوية بدوية من سابقيه يمكن ان نرى في مادتي (عرب) و (عجم) مثلا على ان العربي ولغته كينونة واحدة هي كينونة : ((اعراب فصاحة بيان)), في مقابل ما عداهما

من سائر الكائنات من البشر والحيوان الذين هم "عجم" (١٢) . ومنه يبدو ان " البيان ", هو ما يحدد ماهية العربي اكثر من اي شيء اخر .

يمكن بناء على هذا استخلاص المغزى العميق لأن تكون معجزة الرسول التي دعا بها العرب الى الاسلام معجزة " لغوية " هي " القرآن الكريم " الذي وصف نفسه بأنه " مبين " (١٣) والذي اعلى من شأن البيان حتى جعله وزان خلق الانسان (١٤) وكانت كلمة " بيان " ومشتقاتها من اكثر الكلمات ورودا فيه (١٥) ,اما الرسول الذي وصف نفسه بانه " افصح العرب " فقد قرن تأثير البيان بتأثير السحر (١٦).

وفي العصر الاموي, الذي شهد بعثا نشيطا لقيم البداوة,اكتسبت العربية وادبها القديم خصائص نموذجية ,وكانت تقترن تدريجيا بقدسية النص الديني الذي هو اصل المعرفة والتشريع في دولة مترامية الاطراف اكثرها من غير العرب .

وكان ذلك وراء تلك الموجة من علماء البصرة و الكوفة الذين تدفقوا على الصحراء يشافهون القبائل البادية او يأخذون اللغة عن اعرابها الوافدين .فكان ان تم على ايديهم اخطر تحول شهدته العربية في تاريخها, ذلك)) ان جمع مفردات اللغة واحصاءها وضبط طريقة اشتقاقها وتصريفها ووضع قواعد لتركيبها واختراع علامات لرفع اللبس عن كتابتها .. كل ذلك لايمكن ان يوصف باقل من انشاء علم جديد هو علم اللغة العربية لابل انشاء لغة جديدة هي اللغة العربية الفصحى (١٧) . وكانت النتيجة ان العربية قد تحول منذ حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة من "شفهية" تكتسب بالسماع الى لغة" كتابية " قابلة للتعلم بنفس النظام الذي يخضع له اي علم اخر .

كان الخليل بن احمد الفراهيدي (١٠٠ – ١٧٥ هـ) وتلاميذته قد اضطلعوا بدور حاسم في انجاز هذا المشروع الرائد الذي اجتمع له من رهافة الحس اللغوي والبصر بطبيعة العربية ودقة المنهج وعلميته ,ما جعله بحق, انجازا تأسيسيا اصيلا (١٨), امد "الاجيال اللاحقة بلغة مضبوطة مقننة قابلة للتلقي والتعلم .. قادرة على حمل الثقافة والعلم من السلف الى الخلف" . (١٩) على ان عمل الخليل هذا يظل مهما عظم , مرتهنا, بمستوى عصره وبالغايات التي صدر عنها شأنه في ذلك شأن اي عمل اخر فقد كان ينبغي له من يتولى اتمامه كلما بدت عليه حاجة الى ذلك.

٢

كان الموجه الاساسي الذي دفع باللغويين والنحاة الى جمع اللغة وتقعيدها ما راعيهم من تفشي اللحن وسريانه الى القرآن ,في الوقت الذي كانت الحاجة فيه تتزايد باطراد الى فهم الخطاب الديني وبيان حقائقه وكشف مجازاته واستنباط احكامه, وكان هذا يقتضي ((تحصين)) القرآن من ان يتسرب اليه اللحن الذي يفضي الى اللبس وذلك بتحديد لغة ما وراثية (٢٠) تتخذ مرجعا لتفسيره وليست تلك اللغة سوى لغة العصر الذي تنزل فيه القرآن لغة العصر الجاهلي التي ظلت تتداولها السنة القبائل البدوية المعزلة ويحفظها الشعر الجاهلي .

وكان الاعتماد على "السماع" لا "الكتابة" في

روايتها يتناسب مع الاحتياط في درء "التصحيف" (٢١) عن صورة الكتابة في عصورها الاولى وهي لمّا تبلغ بعد درجة كافية من الضبط (٢٢) .

على ذلك تحدد ميدان الحركة اللغوية بقطاع صغير من الحياة اللغوية حتى القرن الثاني للهجرة "وهذا القطاع هو بعض لهجات البدو "(٢٣) فقد استبعد النحاة واللغويون "عددا كبيرا من القبائل التي اختلطت في حياتها بغير العرب, واستبعدوا كذلك اللهجات الناشئة في الامصار المفتوحة, كما رفضوا اخذ اللغة من القبائل الجنوبية" (٢٤) اذ كانوا يقيسون تلك اللهجات بمعيار الفصحى ويعتبرون "اي اختلاف عنها... فسادا لغويا... ومن ثم فقد اهملوا تلك اللهجات التي اصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعا" (٢٥), ثم هم الى ذلك كله صرفوا جل اهتمامهم الى لغة الشعر قبل سواها .

وبناء على هذا التوجه اهمل العمل اللغوي الميداني في القرن الثاني دراسة مظاهر التنوع اللغوي والتغير اللغوي اللذين شهدهما تاريخ العربية "واقتصرت جهود اللاحقين على تنظيم ما جمعه اسلافهم" (٢٦), ولم يحاول اي من اللغويين ان يسجل ملاحظاته على الفروق بين لغة البدو القديمة وبين لغة عصره ,او بين المعنى الذي يفهمه معاصروه من لفظة جمعها احد لغويي القرن الثاني او "كيف كان معاصروه ينطقون بهذه اللفظة في احاديثهم اليومية وهل كان هذا اللفظ على قيد الحياة ام انه كان قد اندثر" (٢٧) ؟ وبهذا يمكن ان نفسر تشابه الظواهر اللغوية والدلالية التي عالجتها كتب الغريب ومعاجم اللغة فالظواهر التي عالجها السيرافي في القرن الرابع الهجري لاتختلف عن الظواهر التي ناقشها السيوطي في القرن التاسع" فهما يناقشان مثل باقي النحاة العرب ما سجله الباحثون في القرن الثاني الهجري (٢٨). ونظير ذلك يمكن ان يقال عما سجله ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في لسان العرب والزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) في تاج العروس من ملاحظات حول دلالة الالفاظ فهما "لم يسجلا هذه الملاحظات عن الاستخدام اللغوي في القرن السابع او القرن الثاني عشر للهجرة" بل نقلاها عن كتب تقوم في اكثرها على اساس ما جمعه اللغويون في القرن الثاني الهجري (٢٩) وبناء على ذلك يمكن القول : "ان حركة جمع اللغة في القرن الثاني الهجري حددت اطار النظرية العامة للعمل اللغوي في القرون التالية" (٣٠) .

هذا المنطلق الذي كان يحكم توجه الحركة اللغوية قد افضى الى :

أ- توخي نوع من المطابقة بين لغة "الفطرة والسليقة" التي هي معطى واقعي متغير وبين منهج علمي قوامه هيكل من الابنية والقوالب التي هي امكانات ذهنية قياسية اصلا . وهو اجراء منح العربية قدرة على التوالد الداخلي (الاشتقاق) الذي جعلها اكثر مطاوعة على حين نجم عنه بالمقابل "تحصين" اللغة وضبطها ضمن اطار مغلق يرتفع بها فوق الواقع التاريخي المتجدد. ثم ان عمل الخليل. الوصفي في اساسه سرعان مارفعه اللاحقون الى مرتبة القاعدة المعيارية بحيث انصرف اللغويون الى الاهتمام بقواعد اللغة التي من شأنها تمييز الكلام الصحيح من غيره, دون "ان يعيروا تطور اللغة التفاتا بل كان كل همهم هو تدوين اللغة القديمة... وكانوا ينظرون الى هذا التطورعلى انه نوع من المولد او اللحن (٣١)

وكان من جراء ذلك ان اقصيت اللغة التي تكتسب بالفطرة وحلت محله اللغة التي تصنع بالقاعدة النحوية, تلك التي اتخذ منها النحاة "سلطة" لاتـرد على اللسان العربي ذاته (٣٢),بحيث عقد ابن جني في"الخصائص"بابا "في اغلاط العرب"(٣٣). وهكذا بلغت الصنعة, بالخطاب النحوي مبلغ تلك الطرفة البالغة الدلالة التي روبت عن ذلك الاعرابي الذي سمع حديث النحاة في مجلس الاخفش, ((فحار وعجب... فقال له الاخفش: ما تسمع يا اخ العرب ؟ قال : اراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا" (٣٤) وكانت النتيجة ان "بقيت, اللغة العربية وما زالت منذ زمن الخليل على الاقل لم تتغير ... انها اذ تعلو على التاريخ لاتستجيب لمتطلبات التطور (٣٥) .

ب – ان جامعي اللغة حين اتخذوا من "عالم البداوة" مصدرا وحيدا لاستقاء اللغة الصحيحة الفصيحة فقد ضيقوا من آفاق تلك اللغة وقصروها على عالم حسي طبيعي لاتاريخي .

لقد اغتت لغة المعاجم بكل ما هو بدوي واحاطت احاطة مدهشة بتفصيلات الحياة البادية وجزئياتها, وكثرت فيها المترادفات بحيث غدت اوسع من لغة الواقع وتوفرت على فيض من الالفاظ بالقياس الى ما يتطلبه المعنى (٣٦), وهو ما كان سببا من اسباب الخلاف في تفسير القرآن احيانا, ومصدرا لبعض الخلافات الكلامية والفقهية احيانا اخرى (٣٧) .

وبموازة هذا الغنى البدوي لم تبد المعاجم العربية عناية مماثلة باللغة الحضرية التي احتفل بها القرآن, والتي هي على اية حال لغةالمجتمعات المدنية في الحجاز بل ان تلك المعاجم بت صامته عما كان يضطرب في مجتمعات الشام والعراق ومصر من حركة ونشاط وهي مجتمعات حضرية زخرت حياتها العامة بالالات والادوات والعلاقات المتنوعة مثلما زخرت حياتها العقلية بالمصطلحات والتعبيرات المولدة, فحين دخلت العربية طور الكتابة والتأليف في العصر الاموي لم تعد لغة الشعر والخطابة فقط بل صارت لغة العلم والثقافة ايضا ,"ولاشك ان استخدام العربية في مستويات جديدة دفع الى تجديدات لغوية بعيدة المدى"(٣٨) ,وقد تمثل ذلك في العديد من الكلمات والتعابير والمفاهيم والمصطلحات الفلسفية والعلمية كتلك التي اشار الجاحظ الى امثلة منها (٣٩) .

ج – على ان الطابع البدوي للغة العربية لم يكن تأثيره مقصورا" على النحاة واللغويين بل تعداهم الى النقاد والبلاغيين الذين اتخذوا من "كلام العرب" ومن الشعر الجاهلي خاصة انموذجا يقاس عليه النتاج الشعري والذوق الادبي وكثيرا ماتظروا باعراض الى "الشعر المحدث" ولم يقبلوا منه الا ماكان جاريا على "طريقة العرب" وهي نظرة تحول دون الاحساس العميق بالتغير في الذوق او في طبيعة الفن الشعري (٤٠) وتدعم الشعور بقداسة اللغة , فكان ان طبعت الذائقة الادبية بطابع الاعجاب بالقديم والسعي الى مجاراته واعتمدت في النقد اصطلاحات لاتخفى مرجعيتها البدوية كالفحولة والفصاحة والطبع, كما تمثلت البلاغة في سهولة نفاذ الكلام الى الاذن وفيما يبعث من هزة عاجلة ناجمة عن كون معناه في ظاهر لفظة بعيدا عن عمق الفكر وخصوبة الخيال فالكلام الذي يستحق القول بأن الخطاب العربي ظل في جملته ذا طابع شفهي طرفاه اللسان والاذن فلاعجب

ان ينصرف الى يستحق اسم البلاغة بنظر الحاحظ هو الذي "يسابق معناه لفظه ولفظه معناه" (٤١) وبناء على هذا يمكن القول بأن الخطاب العربي ظل في حملته ذا طابع شفهي طوفاه اللسان والاذن, فلاعجب ان ينصرف الى العناية بالالفاظ ونظمها قبل اي شيء اخر .

وبصرف النظر عن طبيعة النظام المعرفي الذي تشكلت هذه الصورة في سياقه فان النتيجة التي ترتبت على ذلك ان اللغة التي حفظتها المعاجم العربية والتي هي لغة الادب والثقافة, ظلت ومازالت تنقل الى اهلها عالما يسكن الذهن ويحيا في الوجدان ولكنه يزداد بعدا عن عالم الحضارة التقنية الذي يعيشه اهلها في الواقع والذي يزداد غنى وتعقيدا (٤٢) .

٣

حفلت العربية خلال تاريخها المديد بمظاهر التنوع اللغوي وماتجم عنه من تحول وتغير, لقد التقت بألسنة كثيرة سامية وغير سامية, وتبادلت معها تاثيرات شتى صوتية ودلالية وتركيبية, فنشأت جراء ذلك لغة مولدة (٤٣). وحين عدت العربية لغة الثقافة والتاليف لم تعد تروى سماعا بل صارت تؤخذ من الكتب, كما لم تعد لغة البدو مثلا اعلى للاستخدام اللغوي, اذ كان على العربية ان تفي بالمتطلبات المعرفية لحضارة عالمية, وهو مالم يكن المعجم البدوي وحده كافيا للنهوض به, وقد كان هذا كله ايذانا ببعد الشقة بين الفصحى ولغات الامصار . وفي القرن الثالث للهجرة سجل الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) امثلة لتلك المظاهر حين لاحظ الاختلاف في القاط اهل الامصار وعزاه الى "انهم انما يتكلمون على لغة الدارلة فيهم من العرب" (٤٤) كما ذكر امثلة من التاثيرات "اللكنات" بين اصوات العربية واصوات من فارس والروم(٤٥) وذكر صورا لانحرافات في التركيب والاعراب مما يدخل في القرن الربع عقد الهمداني (ت ٣٣٤ هـ) في كتابه : " صفة جزيرة العرب " فصلا عنوانه :"لغات اهل هذه الجزيرة" (٤٧). وابدى المقدسي اهتماما اوسع باختلاف اهل البلدان في كلامهم واصواتهم والسنتهم...(٤٨). وقد وجد ان العربية في مصر والمغرب غدت قريبة اللغات الاصلية كالقبطية والبربرية والرومية وان اللهجات العربية فيهما قد ركت او انغلقت(٤٩). ومن خلال صور التنوع اللغوي التي يعرضها المقدسي يبدو ان عربية القرن الرابع تكاد تقتصر على الكتابة والتاليف والنتاج الادبي وان السنة المثقفين لم تكن ترى في اللحن بها عيبا, حتى انه كان يخجل من كثرة اللحن في مجلس قاضي القضاة ببغداد (٥٠) .

ومنذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت السلطة السياسية في معظم العالم الاسلامي قد صارت لغير العرب فكان ان انسحبت العربية من ميدان السياسة والادارة واقتصرت على علوم الاسلام حتى ارتبطت في الوجدان الشعبي بالدين وحتى لم يعد لها اثر يذكر في الحياة العامة ابان الحكم العثماني الذي امتد الى بدايات هذا القرن (٥١) .وطوال ما كانت العربية تتفاعل مع غيرها, كانت تؤثر وتتاثر وتعطي وتاخذ, وكانت تبعا لذلك تنمو وتتطور وفقا لنظامها ومنطقها, ولم يكن تطورها هذا يجري تبعا للاهواء و المصادفات . وانما يخضع في سيره لقوانين حتمية ثابتة (٥٢) وعليه فان وظيفة العالم اللغوي لاينبغي لها ان تتجاوز " وصف

هذا التطور وتسجيله, ومحاولة الكشف عن القوانين التي تقف وراءه" (٥٣). واذ لم يتح للغويين القدامى ان يحيطوا بهذه القوانين في عصرهم, فلم يكن من مهمهم ان يصفوا هذا التطور ويقارنوا بينه وبين اصوله بقدر ما كان يعنيهم ان يقفوا في وجهه ويميتونه ويحاولون ارجاع الناس الى القديم" (٥٤) وهم ربما كانوا يصدرون في هذا عن رؤية للغة تستمد من شعور ديني يقرن العربية بالقرآن, فما دام كلام القرآن قد بلغ باعجازه الكمال وان ما تلاه ناقص بالقياس اليه, فان عربية القرآن هي الانموذج اللغوي الكامل وان ما تلاها لحن وفساد بالقياس اليها . وهي رؤية ترفع اللغة فوق التاريخ وفوق الواقع وتتناسى ان لغة البدو مهما برعت في التعبير عن حياتهم فانها "لاتكفي في تادية احوال الاقوام المتمدينين وحاجاتهم وخصوصا افكارهم الدينية والفلسفية والعلمية"... (٥٥) كما ان اتخاذها "معيارا" لتمييز الكلام الصحيح من غيره هو "عمل المعلم لا العالم" والمعلم اذا ظن "ان تعليمه فيتسع اذن الشق الحاجز بين اللغة الحقيقية الحية وبين ما يعلمه النحويون كما نشاهد ذلك في تاريخ العربية" (٥٦) .

لقد ظل كتاب سيبويه عمدة الدراسة النحوية حتى القرن الثامن الهجري وخلال ذلك عرف القرن الرابع اتجاها لتاليف كتب تعليمية في النحو, وفي القرن الخامس وما تلاه زادت تلك الكتب وظهرت محاولات اخرى لوضع منظومات تعليمية كان اشهرها الفية ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) . لقد كان ابن مالك وابناء عصره بمنأى عن ملاحظة التطور اللغوي وتسجيل مادة جديدة او النظر الى المادة القديمة بمنهج جديد ومع ذلك حازت براعته في صياغة الالفية على اعجاب معاصريه ومن تلاهم فاهتم مدرسوالنحو بشرحها وبتعليق الحواشي على شروحها, واستمرت حركة تاليف الشروح على الالفية دون انقطاع اكثر من خمسة قرون. وماتزال هذه المنظومات والشرح والحواشي تشغل ساعات دراسة النحو في اكثر المعاهد العلمية" (٥٧) .

٤

على ان محاولات لبعض العلماء ربما تعد علامة على احساس من نوع ما, بالتطور اللغوي ومنه تطور دلالة الالفاظ, يشار من بينها الى المحاولة "التي قام بها ابو حاتم احمد بن حمدان الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ والتي سجلها في كتابه "الزينة في المصطلحات الاسلامية العربية (٥٨) وما تلا ذلك من جهود في حقل المصطلح ثم الى ما كان الازهري (ت ٣٧٠ هـ) قد افاده من القرامطة حين وقع في اسرهم, من الفاظ نثرها في معجمه "تهذيب اللغة" (٥٩) وسجل ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) ما كان يرويه عن بعض الاعراب (٦٠) والمدهش ان ابرز الحاذين في هذا الشان قد وردا من خارج المجتمعات العربية, فقد وضع العالم الهندي الشيخ محمد اعلى بن علي التهانوي (بعد ١١٥٨ هـ) اوسع معجم للتعريف بمصطلحات فنون المعرفة في الحضارة العربية الاسلامية هو "كشاف اصطلاحات الفنون " فكان ذلك تتويجا لجهود سابقيه في ميدان المصطلح وحين اقبل المستشرقون الاوربيون على قراءة التراث العربي الاسلامي لم يجدوا في "لسان العرب" ما يحقق بغيتهم وبدت لهم الحاجة الى معجم يكمل ما تعاني المعاجم العربية وسواها من نقص, فنهض المستشرق الهولندي رينهارت دوزي الى وضع معجمه "تكملة المعاجم العربية" بالفرنسية وقد نقل الى العربية عدة مرات. وفي المقدمة التي كتبها الدكتور محمد سليم النعيمي, مترجمه الى

العربية ذكر ان قرنا ونيفا مضى على تاليف معجم دوزي وان "الحاجة ماسة الى معجم جديد... يجمع الالفاظ الطارئة التي لم ترد في المعاجم القديمة فكان ان وضع معجما اسماه "المزيد على المعاجم العربية" وقد قرر المجمع العراقي طبعه (٦١) لكنه لما يظهر بعد بالرغم من مضي نحو عشرين سنة على تاليفه .

كذلك يمكن الاستدلال على حجم النمو في العربية من خلال تتبع التطور الدلالي لمادة لغوية او اكثر تتبعا تاريخيا مقارنا, ومثال ذلك ما فعله الدكتور محمود فهمي حجازي اذ تتبع مادة "جمع" بان قارن دلالتها في "لسان العرب". كمثل للغة البادية بما جد عليها في معجم دوزي كنموذج لالفاظ الحضارة العربية الاسلامية, وشفع ذلك بدلالتها كاصطلاح في كشاف التهانوي تم بما تطورت اليه دلالتها في العربية الحديثة (٦٢). وقد اظهر ذلك فرقا واضحا بين دلالتها في اللسان وبين ما اكتسبته خارجه من دلالات اخرى . وعلى صعيد التركيب رصد الدكتور حجازي بعضا من مظاهر التطور في بناء الجملة العربية الحديثة مثل تراكم المصادر, وذلك حالة الاضافة باستخدام حروف جر والتعبير عن التكسير باستخدام كلمة "احد" او مؤنثها مضافة الى ما بعدها (٦٣) . ان هذه المحاولات – على قلتها – تظهر الحاجة الى دراسة مناحي تطور العربية في اصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها والكشف عن قوانين هذا التطور. كما يشير النمو المستمر على انها تعد من وجه اخر دليلا على مرونة العربية وقدرتها الفائقة على التطور والنمو وعلى ان اهم العوامل اثر في تطورها نابع من حياة المجتمع العربي اصلا

(٦٤)فالعربية التي كانت لغة الفكر والثقافة في حضارة الاسلام هي التي تخلت عن هذه المهمة وانزوت في اروقة المساجد ومؤسسات التعليم الديني ابان السيطرة العثمانية ,وهي بذلك تقيم الدليل على ان "اللغة لاتعيش الا في جماعة لغوية ولا ترقى الا بالانسان" (٦٥), وانها انما تخصب او تجدب على وفق حال الناطقين بها . وبهذا المنظار سننظر في واقع العربية من خلال واقع المجتمع العربي ذاته.

ثالثا – واقع العربية – مخلفات وتركمات

١

تتأسس الحياة العربية المعاصرة في مجملها على "ثنائية" الفكر والواقع (النظر والعمل), وهي ثنائية لاتكاد تقوم على الصراع الذي يتوالد فيه الشيء من اصله حيث يكون الخلف امتدادا لسلفه وتجاوزا له في الوقت ذاته, فذلك هو القانون الطبيعي لتطور الحياة ولكنها ثنائية تقوم على ضرب من "التجزيئية" التي يبدو فيها كل طرف وكأنه قائم بذاته وكأن له آليته الخاصة به . مثل هذه الثنائية تفضي بالضرورة, الى رؤية يبدو فيها العالم وكأنه يتحرك خارج الزمان, انها الرؤية اللاتاريخية للعالم .

هذا الضرب من الثنائية يمكن التماسه في الحياة العربية على مختلف المستويات, وقد يكون من اوضح تجلياته واخطرها هو الرؤية اللاتاريخية لثنائية "الماضي والحاضر" التي ربما كانت المسؤولة عن قدر كبير من التخلف الفكري الذي يعاني منه العالم العربي وعن ذلك التخبط والاضطراب الثقافي الذي يظهر اوضح مايكون في الطرق التي تعالج بها مشكلة موقفنا من التراث ودوره في الحياة

الحاضرة او مشكلة الاصالة والمعاصرة كما تشيع تسميتها (٦٦).

ان صورة الماضي في الذاكرة العربية هي نتاج القطيعة المزمنة بين العرب وتاريخهم وهي لذلك ذات مكونات انتقائية يمليها واقع التخلف اصلا, انها صورة التقاليد والرموز والقيم والشعائر, ومثل هذه الصورة لاتمثل – مهما بلغت من الكثرة والتعدد – الا جانبا محدودا ومبعثرا من ماضينا الكلي لانها تكاد تقتصر على نقل مظاهره التي لها طبيعة حسية – جزئية. ومثل هذه العلاقة بالماضي انما تقوم على استعادته – تقليده, ووضعه موضع المعتاد المألوف الذي يسكن ما دون الشعور في الذاكرة الجماعية والذي يبدو ماثلا امام الحاضر ,"لا بوصفه مندمجا في هذا الحاضر ومتداخلا فيه, بل بوصفه قوة مستقلة عنه منافسة له, تدافع عن حقوقها ازاءه وتحاول ان تحل محله" (٦٧).

على ان الحياة العربية لم تعد تاسرها ثقافة الماضي فقط, فهناك تحد ثقافي يخترقها من الخارج يتمثل في طغيان "استعمار" ثقافي تمارسه القوى المهيمنة اقتصاديا وسياسيا في العالم, بما في ذلك تحكمها في تجارة العلم والتقنية, وامتلاكها لوسائل الاتصال السمعي والبصري, ولغتها الاساس هي الانجليزية. هذه الثقافة ترمي الى تكريس السلوك الاستهلاكي والتبعية الفكرية, والعمل على تشويه الثقافة العربية الاسلامية وافراغها من خصوصيتها وتفكيكها الى ثقافات فرعية او طارئة. وقد تفاقم هذا التحدي من خلال ما يروج له الاعلام الغربي من ان الاسلام هو "العدو" البديل عن الشيوعية وما رافق ذلك من شن حرب باردة عليه باعتباره رمزا للتخلفوالارهاب (٦٨). اذا نظرنا الى الثقافة على انها فاعلية انسانية مركبة, شعورية ولا شعورية, تحققها الامة ذاتيا في نتاجها المادي والفكري وعلاقاتها الاجتماعية بما يشكل هويتها الحضارية الخاصة في رؤيتها لنفسها وللعالم. فان الثقافة العربية بهذا المعنى تجد نفسها في خضم هذا الصراع محكومة باكثر من "ثنائية" فهي من حيث المبدأ ثقافتان : ثقافة الجمهور وثقافة النخبة. والجمهور العربي يمتد من البادية الى ارياف المدن واحيائها الشعبية وثقافته "شفهية" ذات طابع "تقليدي" لغتها "العامية" بلهجاتها الدارجة في الاقطار العربية. اما النخبة فمركزها المدينة وثقافتها "الكتابية" لغتها "الفصحى" التي ماتزال تقترن في ذهن الجمهور بالدين و"التراث" فهي لغته القومية. ثم ان ثقافة "الكتابة" هي الاخرى ثقافتان : ثقافة التراث وتستند الى اصولها العربية الاسلامية بمفاهيمها والياتها ورؤيتها وثقافة "العصر" وتستند الى الحداثة الغربية والتي تعني التمسك بالعصر الحاضر كلحظة تكتفي بنفسها والقطيعة مع ثقافة الماضي (٦٩) .

ومن خلال التطابق بين الثنائيتين ينشطر عمود الثقافة العربية الى : ثقافة الجمهور, ونخبتها "العلماء والشيوخ" وهي تعكس "الاصالة" في صورة "جمود" على التقليد ومقاومة التحديد وثقافة المدينة العصرية ونخبتها "المثقفون" وهي تعكس الحداثة في صورة "احتراق" وتبعية تفضي الى مستوى "عصري" من تقليد الاخر. ولكلتا الثقافتين بنيتها ومؤسساتها (٧٠) .

ان الصراع بين الاصالة والحداثة يطغى عليه في الثقافة العربية المعاصرة طابع التناحر والتنابذ بدلا من الحوار والتواصل وكانما هو صراع بين بنى متجاورة متباعدة هي : بنى الحداثة المغروسة في المناطق الحضرية,

حيث الدولة ومؤسساتها وعالمها المستورد, وبنى الشغلية في المدن وخارجها, وعالمها التقليدي, مثل هذا الصراع يحمد الحركة ويفسح المجال لاثارة النعرات والتعصب بمختلف اشكاله (٧١). كل هذا بالطبع على حساب ما هو جوهري في الثقافة العربية ونعني به تلك الثقافة التي تستقي اصولها من خصوصية الواقع العربي بمختلف مكوناته؛ المادية والروحية, التراثية والمعاصرة, ومختلف رؤاه واساليبه في تمثل هذه المكونات وتشكيلها نظرا وعملا بما يغني من اصالة تلك الثقافة ويعمق من تفتحها على حركة العصر وانجازاته وتنوع ثقافاته ويزيد من فاعليتها في تطور الثقافة الانسانية .

ان هذه الثقافة التي تعاني اليوم من واقع التمزق بين الاصالة والتغريب تعاني في الوقت ذاته من تسلط "السياسة" عليها؛ فالسياسات العربية بوجه عام لاتكاد ترى في الثقافة اكثر من شكل اخر لايدلوجياتها . وحتى الحركات الوطنية لم تستطع ان تجد نفسها في وضع يتيح لها ان تفعل اكثر من تربية جمهورها تربية وطنية ,"فكانت النتيجة ما نراه من انحدار مستوى التعليم وانتشار الامية, امية القراءة والكتابة وامية الفكر والثقافة, واتساع الهوة بين "التقليدي" و"العصري" في مختلف مجالات الحياة العربية واخيرا, وليس اخرا سيادة القوالب الايديولوجية الجاهزة؛ التراثية والحداثية معا على الفكر العلمي النقدي ... (٧٢) .

هذه صورة لهيكل الثقافة العربية لاينبغي منها ان نتبين اتجاهات تلك الثقافة او قيمتها, انما ينبغي ان نصل من خلالها الى صورة لواقع اللغة العربية التي هي مادة هذه الثقافة واليتها الفكرية ايضا, ومن الطبيعي ان تتاثر لغة الثقافة بما يعانيه نتاجها من مشكلات .

٢

اللغة ملكة لسانية ينتجها المجتمع بان يتيح لافراده ممارستها (٧٣) فما هي اذن صورة الممارسة اللغوية التي ينتجها المجتمع العربي في وضعه الراهن ؟

يزدوج اللسان العربي على اكثر من مستويين لغويين, فالفصحى لغة القراءة والكتابة والعامية, لغة الحديث, على تفاوت في قربها او بعدها عن الفصحى (٧٤). وعامية المثقف العربي تبدو اقرب الى العصر من الفصحى بسبب ما تقتبسه من اللغات الاخرى, لكنها رغم ذلك دون الفصحى قدرة على امتلاك الاليات الضرورية للتفكير, اذ هي ليست لغة فكر وثقافة كالفصحى, "ومن هنا فقرها المدقع رغم غناها الظاهري" (٧٥). ولكن لما كان اكثره من ثلثي السكان في الوطن العربي امين * ادركنا ضيق الدائرة التي تعمل في نطاقها الفصحى. على ذلك ينبغي النظر الى العلاقة بين العامية والفصحى نظرا ايجابيا اذ هما نتاج لسان واحد وتحدوهما غايات مشتركة ومن الممكن حين تتوفر البيئة اللغوية السليمة ان تغتني احداهما بالاخرى .

لما كانت الفصحى لغة القراءة والكتابة فانها تكتسب بالتعلم, ومؤسسات التعليم في البلاد العربية حكومية وموقفا من اللغة يمكن يندرج ضمن موقف الحكومات العربية من الثقافة عامة, فبالرغم من المكانة "الرسمية" للعربية بما في ذلك اصدار بعض القوانين الخاصة بها احيانا (٧٦) فانها لاتحظى في الواقع الا بمكانة هامشية اذا ليست ببعض مواد التعليم الاخرى. ويعزى ذلك من بين

جملة اسباب, الى تاثير العامل الحضاري اساسا ذلك ان "مكانة اية لغة من اللغات الكبرى المعاصرة تتحدد في المقام الاول بما تحمله من تراث حضاري وما تقدمه من نتاج حضاري حديث" (٧٧) وعلى ذلك يكون للعلماء والمثقفين في الجامعات ووسائل الاعلام اثر كبير في البيئة اللغوية . والعربية لغة تراث حضاري عريق, لكن فاعلية توانها الحضاري في الحياة المعاصرة لاتكاد تتعدى نطاق المختصين في الجامعات والمجامع ومراكز البحث وندوات الادب والثقافة وضمن هذا النطاق يمكن التماس العربية في افضل صورها اما تاثيرها في الواقع فضيق محدود .

وفي الجانب الاخر حيث ينظر الى التراث على انه فوق الواقع واسمى منه ,ينظر الى العربية على انها سجينة نصوص ذلك التراث التي لاينبغي ان يمسها التغيير هذه النظرة تقاوم التطور اللغوي وتتصدى لاي تجديد على انه مروق وتخريب .

اما دور العربية في النتاج الحضاري الحديث فادعى الى ان يكون دور "الوسيط" منه الى دور "المبدع" خصوصا في حقل العلوم وتقنياتها فتدريس العلوم والهندسة والطب يتم في اكثر جامعات الدول العربية باللغة الانجليزية او اللغة الفرنسية مع ان دساتير هذه الدول تنص على كون اللغة الرسمية هي اللغة العربية" (٧٨). وهكذا يجد المعنيون بهذه العلوم انفسهم وهم احوج الى اللغة الاجنبية – والانجليزية خاصة – منهم الى لغتهم العربية . وعدا ذلك فان المراجع الاساسية في كثير من العلوم الانسانية مراجع اجنبية, والمؤلفات العلمية التي تكتب بالعربية كثيرا ما تستقي مادتها من مصادر اجنبية,

كل ذلك بسبب عجز المؤسسات العلمية العربية عن مواكبة المنتجات الاساسية للفكر العالمي ونقلها الى العربية .وتتفاقم صورة هذا "العجز" الى نوع من الشلل اذا عرفنا "ان حجم المعارف الانسانية يتضاعف عموما في هذا العصر كل ثماني سنوات تقريبا, بل انه, في بعض التخصصات... يتضاعف... كل اربع او خمس سنوات على الاكثر... ومن هنا كان الاهتمام البالغ بتنمية اللغة حتى تلبي الطلب المتزايد على الفاظ حضارة القرن العشرين عامة والفاظ العلوم المختلفة خاصة"(٧٩). هذا على حين لم يشهد "المعجم الوسيط" ولعله "افضل المعجمات الحديثة جمعا وترتيبا" (٨٠) .سوى تغييرات طفيفة منذ صدوره سنة ١٩٦٠. ازاء ذلك كله يبدو المثقف العربي – من اي اختصاص كان – ولا غنى له عن لغة اجنبية لكي يتمكن من مادة اختصاصه * وذلك ما يفتح الباب واسعا امام تبعية الثقافة ويشكل تحديا للغة العربية على انها لغة هامشية لم يعد الجهل بها معيبا, !وهو ما يتجلى اليوم بشكل سافر ** رغم ان ذلك لايعني انكار حاجة الواقع العالمي المعاصر الى التخاطب باكثر من لغة .

٣

تتجلى عبقرية العربية في ادبها. ومنذ اتصال العرب بالغرب اصاب الادب العربي حظا بعيدا من التطور في اشكاله وموضوعاته وكان لانتشار الطباعة والصحافة والتعليم والترجمة ووسائل الاعلام السمعية والبصرية

---

* تشترط جامعات العراق على من يتقدم للدراسات العليا فيه, باستثناء المختصين باللغة العربية, ان يجتاز اختبار كفاءة باللغة الانجليزية.

اثر عظيم في تغيير البنى الاجتماعية والثقافية في معظم البلدان العربية. وقد نجم عن ذلك على صعيد اللغة ان اتسع ميدان الاستخدام اللغوي وتنوعت مستوياته. وعلى صعيد الادب ان اغتنت رؤية الاديب بحركة الواقع وما يعتمل فيه ذاتيا وموضوعيا من صراعات ورؤى وتحولات فكان ان اندثرت بعض الفنون والاغراض التقليدية القائمة على بلاغة الصنعة ورنين الايقاع وظهرت عوضا عنها مسرحيات توفيق الحكيم وروايات نجيب محفوظ وقصائد بدر شاكر السياب... كذلك نحت فنون اخرى نحوا جديدا في تطورها, حتى ليمكن القول ان الادب العربي قد تحول الى حد كبير من طابع "الخطابة" الى طابع "الكتابة" وخلال ذلك اغتنت العربية بالعديد من الالفاظ والصيغ والاشارات والرموز وتنوع في البنى والايقاعات. ويمكن الاستدلال على ذلك بما قاله س .موريه عن لغة الشعر العربي الحديث مثلا : لقد كتب شعراء الشعر الحر ما كتبوا باسلوب مبسط مؤسس على لغة الحياة اليومية وقام مقام البلاغة وتميع الشكل في اشعارهم الصورة الشعرية المعبرة والمثيرة للدهشة بجدتها وعمقها و"المعادل الموضوعي"... ويمكن ان نضيف الى هذين استخدام العناصر الدرامية والحوار والمفاجأة الفردية وغيرها . وحتى لا ينزلق الشعراء الى النثرية . توسعوا في استخدام الرموز الدينية . وكذلك الرموز المستمدة من الاساطير اليونانية والشرقية . فربطوا الشعر المعاصر بالتراث العربي والانساني وان ظلوا مع ذلك يعبرون عن شعور الشاعر وتجربته الخاصة" (٨١) .

ويعزى التنوع في لغة الادب العربي الحديث؛ شعره ونثره الى ما يكابده الاديب العربي من توتر وتمزق في بحثه المزدوج عن ذاته المستلبة تارة في سياق حضارة عالمية تغمره بتقانتها التقنية وبما تأسست عليه من اصول علمية ورياضية وفلسفية وتتحداه بتغيرها السريع. وتارة في سياق سلطة سياسية- اجتماعية تحكمها ثقافة السائد والمكرور وهي ثقافة تناهض الابداع بل تكاد تلغيه . وعدته الاولى في هذه المواجهة هي "اللغة", بها يقرأ ثقافته ويطلع على ثقافة الاخر ويعبر عن ذاته. لكن هذه اللغة التي هي هوية العربي ورمز الوحدة بين عقله وشعوره في الماضي تبدو في الممارسة العملية اليوم اداة او وسيلة بينها وبين من ينطق بها مسافة من الجهد والتكلف وربما الجهل ايضا. وازاء ذلك يجد الاديب العربي نفسه محاصرا اما بالاستسلام للذائقة السائدة او بالهرب الى محاكاة لغة الاخر, واما بالتمرد على حالة استلابه وبما ينطوي عليه هذا التمرد من تأمل واستبطان وانطواء وتمزق وفي حال من التجريب يطول اللغة ذاتها. واذا كان ادب الذائقة السائدة اثيرا لدى وسائل الاعلام عادة فان ما عداه من ازمة في التوصيل والتاثير .

٤

تمثل وسائل الاعلام السمعية والبصرية اوسع مجالات التداول اللغوي واشدها اثرا في تنمية الحس اللغوي وتوجيهه ,واجهزة الاعلام الرسمية في البلاد العربية موجهه لغايات من شأنها التاثير في الجمهور الذي يتحدث العامية وهي لذلك اميل الى مخاطبته باللغة التي يستسيغها عادة وعليه فلغة الغناء والحوار والتمثيل هي العامية غالبا حتى ان اعمالا ادبية رفيعة كاعمال نجيب محفوظ مثلا لايستساغ تمثيلها الا حين تحول الى العامي

---

* تحال مؤلفات الجامعيين, من غير المختصين باللغة العربية بما في ذلك رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات العراق الى خبير لغوي قبل نشرها او مناقشتها , ضمانا لسلامة لغتها

ناهيك عما يكتسب بالعامية اصلا من ادب تمثيلي.

هكذا لايبقى للعربية في الواقع سوى مجال الكتابة ممثلا بالخطاب الرسمي (السياسي , الديني , الادبي ..) وما تنتجه وسائل النشر من مطبوعات (صحف , مجلات , كتب ..). لكن هذا المجال بالرغم من سعة تأثيره لم ينج هو الاخر من الاختلال فالعربية المطبوعة تعاني من ان صورتها الكتابية الحالية لاتلائم النطق بها لخلوها من علامات الشكل (٨٢). وهو ما يدعو الى المزيد من اضطراب الملكة اللغوية المؤسسة على العامية اصلا, ويتجلى هذا في لغة الصحافة ولغة الخطابة مثلا كما تعاني الترجمة من فوضى المصطلحات ومن هبوط لغتها غالبا . اما الكتاب العربي فيعاني منذ السبعينات من ازمة حادة في قراءته وانتاجه ظلت تتفاقم اكثر فاكثر خلال الثمانينات. لقد كانت نسبة انتاجه في السبعينات (١،١٪) قياسا الى نسبة الانتاج العالمي للكتاب لكنها انحدرت الى (٠،٠٩٪) في الثمانينات وما بعدها, وخلال ذلك راح الكتاب العربي يفقد مواصفاته التقليدية ويتحول تدريجيا الى بضاعة قد تنتج خارج العالم العربي .

ويعضد هذا كله ان تعليم العربية في المدارس والجامعات ما يزال بعيدا عن استيعاب الطرائق المتقدمة في تعليم اللغات ومازال مناهجه دون مستوى الاستفادة المبتغاة من نتائج علم اللغة الحديث بفروعه المختلفة (٨٣), فالدرس النحوي مايزال ينظر في اللغة بمنهج "المعلم لا العالم" والدعوة الى اصلاحه لاتكاد تسمع وافضل المعجمات الحديثة لم يخل من نقص (٨٤) ولعل اشد مايعاني منه هو فقره للغة الحياة العصرية ولغة العلم والتقنية خاصة وعلى حين مايزال "لسان العرب" والفية ابن مالك وما شاكلهما المراجع الرسمية المعترف بها في جامعتنا. وخلال هذا الواقع وبسببه يجد المثقف العربي نفسه معوقا عن اكتساب عوبيته المعاصرة التي هي حقه الطبيعي في التعبير عن ذاته, فلا عجب اذن ان يضعف حسه بها وان يكون لسانه مهيئا للانحراف عنها, لا الى العامية وحدها بل الى تلك العامية المهجنة باخلاط من لغة او لغات اخرى .

والنتيجة من جراء هذا هي "اغتراب" العربية عن واقع الحياة "وهنا تكمن المفارقة الخطيرة بل التمزق الرهيب الذي عانى ويعاني منه الانسان العربي الى اليوم : ذلك انه من جهة يتوفر على لغة للكتابة والتفكير على درجة عالية من الرقي من حيث الياتها الداخلية ,ولكن هذه اللغة ذاتها لاتسعفه... عندما يريد التعبير عن اشياء العالم المعاصر الى درجة اننا لو قررنا عدم النطق الا بالالفاظ التي تعترف بها قواميسنا لكان علينا ان نمسك عن الكلام معظم الوقت في منازلنا وشوارعنا ومدارسنا. وبالتالي فسيكون علينا ان نزيح عن عالمنا جميع الاشياء الحضارية المادية والفكرية التي تشكل قوام العالم المعاصر" (٨٥) .

ان المثقف العربي يحيا في عالمين كلاهما قاصر : عالم لغته العامية التي هي بالرغم من معاصرتها ليست لغة الفكر والثقافة وعالم اللغة الفصحى المغتربة عن الواقع الحي . اما الامي العربي الذي يؤلف الاغلبية فهو سجين عاميته, يتعامل مع اشياء لايسميها واذا سماها فباسماء اجنبية محرفة ويتحدث في البيت والشارع وفي الجامعة بالعامية (٨٦) .بضوء هذا الواقع تبدو المفارقة على اشدها بين النظر الى العربية على انها : جوهر الانسان العربي وما رفعه الى الصلة بالوحي في الوعي العربي الاول وبين الممارسة العملية التي تبدو فيها العربية "ركاما من الالفاظ

هذا لايقفها وذلك يهجرها الى لغة اخرى عامية او اجنبية وذلك لايعرف ان يستخدمها ابداعيا لكانها "مستودع" ضخم ينفر منه" بشكل او اخر, بحجة او اخرى كل من يدخل اليه ويغترف حاجته منه حتى كان هناك من "لايتردد في الدعوة الى تغيير بنائها واحلال العاميات محلها" (٨٧) وهو مايشير الى القول بوجود اخر وهوية مغايرة .

ان اشكالية العربية المعاصرة التي هي في الصميم من اشكالية الثقافة العربية برمتها لتبدو اكثر ,"تعقيدا فما كان العلامة الاولى على حضور الغرب كيانيا وابداعيا يفسد ويتراجع", وكأن العربي اليوم لايعرف الاساس الذي عرف به الوجود واسس حضوره في التاريخ. لقد فقد حس اللغة . وفي ذلك يبدو كأنه يجهل ما اعطاه هويته, او يجهل ما هو (٨٨).

٥

ولكي تكتمل صورة "الاختلال" في الواقع اللغوي العربي تبغي الاشارة الى تأثيرات التقدم التقني في الوضع اللغوي العالمي, فشبكة الاتصالات العالمية تدخل اليوم مرحلة "التقنية الالكترونية" وهي تهدد بهيمنة لغة منتجي هذه التقنية وثقافتها, بينما تضيق من مجال التعددية اللغوية والثقافية في العالم حتى دفع ذلك ببعض العلماء الى التكهن بان القرن القادم قد يشهد اندثار بعض اللغات التي لاتتداولها سوى جماعات بشرية قليلة العدد . ومع ان العربية ليست من تلك اللغات طبعا, فانها قد لا تكون بمنجاة من عواقب هذا النظام وتأثيراته, فهو من جهة سيروج لثقافة "الصورة والصوت" على حساب ثقافة الكتاب الذي هو المجال الحيوي للفصحى, وهو من جهة اخرى سيعمر اللسان العربي, بمستويه الفصيح والدارج بسيل من الدخيل البعيد عن طبيعة هذا اللسان مما قد يزيد من بعد الشقة بين الفصحى والعامية, وبذلك تقود الهيمنة العلمية والتقنية للغرب الى هيمنة ثقافية على نحو اشمل .

٦

هذه صورة لعلها وافية بملابسات الواقع اللغوي الراهن وهي ملابسات متعددة ومعقدة, لكنها محكومة اصلا بازمة اساسية هي ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي (٨٩). وغاية هذا البحث ان يكشف عن موقع "اللغة" من هذه الازمة, وخطرها في حياة الثقافة العربية , واهميتها في مواجهة التحدي الغربي الذي يستهدف الذات العربية في الصميم .ان الوعي بهذه الحقائق يستلزم النظر الى اللغة بمستويين : يتصل احدهما بخصوصيتها من حيث هي نظام قائم له طبيعته وقوانين سيره "التي لابد لاحد على وقف عملها" (٩٠). وعليه فان المعرفة العلمية بطبيعة اللغة العربية وقوانين تطورها شرط لازم لوعي مشكلاتها (٩١) .اما الاخر فيتصل باللغة من حيث هي نتاج اجتماعي يمارسها الناس ضمن شبكة من المواضعات والتقاليد, ولاتتحقق سلامة الممارسة اللغوية الا عبر نظام اتصال شامل ومتناسق, فهو لايتحقق على مستوى دون اخر, كما لاتستطيع ان تنجزه الرغبات والتشريعات وحدها, بل يتطور وينمو من خلال ارتقاء نظام الحياة باكمله. وعليه فان مشروع الارتقاء اللغوي العربي لايمكن بلوغه الا وفق حالة من الانسجام والتناسق السياسي والاجتماعي والفكري داخل المجتمعات العربية, وفيما بينها, وعبر دورها في الحضارة الانسانية. وبناء على هذا فان "كل دعوة الى بناء المجتمع العربي .. اذا لم يكن للغة فيها نصيب فهي دعوة متناقضة او ناقصة (٩٢) .

بل ان هنالك من يرى ان تحديد الفكر العربي من اللغة يبدأ ,"لان اللغة هي الفكر ومحال ان يتغير هذا بغير تلك" (٩٣) .

ان باب الدخول الى العالم المعاصر والمشاركة في صنعه لاينفتح فعلا الا حين تنشىء هذه الامة بذاتها "مدينتها العربية الحديثة" بلوازمها المادية والفكرية, وحين ينتج اللسان العربي "لغته العصرية" بلوازمها المعجمية والنحوية والبلاغية, لكن مشروعا كهذا لايكاد يبدو غير احتمال في ضمير المستقبل .

الهوامش

(١) اللغة , ج . فندريس , تعريب : عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص , مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ١٣٧٠ - ١٩٥٠ , ص ٣٦ - ٣٧ , ٤٠

(٢) اللغة في المجتمع . م . م . لويس ترجمة : الدكتور تمام حسان , دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه ,١٩٥٩,ص١٢٩.

(٣) نفسه :١٢٦

(٤) نفسه :٢٩٠ .

(٥) اللغة :٤١٩ .

(٦) علم اللغة العربية , دكتور محمود فهمي حجازي, نشر: وكالة المطبوعات-الكويت , ص ٢٣ .

(٧) علم اللغة العام , فرديناند دي سوسور , ترجمة : الدكتور يوئيل يوسف عزيز , دار افاق عربية - بغداد ١٩٨٥ , ص ٣٢ . علم اللغة العربية : ٢٦ - ٢٧ .

(٨) تكوين العقل العربي , الدكتور محمد عابد الجابري , ط٤ , مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٩ , ص ٧٧ .

(٩) علم اللغة العام : (الفصل الاول) ,ص١٩ .

(١٠) علم اللغة العربية: (الفصل الثاني)ص ٣١ .

(١١) علم اللغة العربية : ٢٢ .

(١٢) لسان العرب , ابن منظور الافريقي المصري, دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر, بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م , مادة (عرب) , ٥٨٦/١ . مادة (عجم) , ٣٨٥/١٢ .

(١٣) الحجر : ١ , المائدة :١٥.

(١٤) البرهان في علوم القرآن , محمد بن عبدالله الزركشي , تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم , ط٢ , ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م , ٣١٢/١ .

(١٥) معجم الفاظ القرآن الكريم , مجمع اللغة العربية , ط٢ , الهيأة المصرية العامة للتاليف والنشر , القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ,مادة (بين) , ١٤٢/١ - ١٤٧ .

(١٦) البيان والتبيين , ابو عثمان الجاحظ , تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون , ط٥ , نشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة , ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م , ٣٤٩/١ .

(١٧) تكوين العقل العربي : ٨٠ .

(١٨) عبقري من البصرة , الدكتور مهدي المخزومي ,دار الرائد العربي , ط٢ , بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م , ص ٣٢,٣٣ ,٥١, ٥٩ - ٦٣ .

(١٩) تكوين العقل العربي :٨١ .

(٢٠) نفسه : ٨٥ .

(٢١) ينظر في معنى "التصحيف" : المزهر في علوم اللغة وانواعها , جلال الدين السيوطي , شرحه وضبطه , محمد احمد جاد المولى ورفيقاه , مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر , ٣٥٣/٢ .

(٢٢) ضحى الاسلام , احمد امين , ط٦,

مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر, القاهرة ١٣٨١ هـ-١٩٦١م , ٢٦٠/٢ .

(٢٣) علم اللغة العربية :٢٢٤ .

(٢٤) نفسه :٢٢٤ .

(٢٥) نفسه : ٢٢٥ .

(٢٦) لحن العامة والتطور اللغوي , الدكتور رمضان عبدالتواب , ط١ , القاهرة ١٩٦٧ ,ص ٦٢.

(٢٧) نفسه.

(٢٨) علم اللغة العربية :٩٨ .

(٢٩) نفسه : ٩٨, ٣٠٢ .

(٣٠) نفسه : ٩٨ .

(٣١) لحن العامة والتطور اللغوي : ٦٢ - ٦٣ .

(٣٢) طبقات فحول الشعراء , محمد بن سلام الجمحي , قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر, مطبعة المدني بمصر ,١٦/١ .

(٣٣) الخصائص , صنعة ابي الفتاح عثمان بن جني , تحقيق : محمد علي النجار , ط٤ , الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار الشؤون الثقافية العامة , بغداد ١٩٩٠ , ٢٧٦/٣ .

علم اللغة العربية : ٢٥٩ .

(٣٤) الامتاع والمؤانسة , ابو حيان التوحيدي, صححه وضبطه وشرح غريبه : احمد امين واحمد الزين , مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ,القاهرة ١٩٤٢ , ١٣٩/٢.

(٣٥) تكوين العقل العربي : ٨٦ .

(٣٦) نفسه :٨٨ .

(٣٧) نفسه : ٧٥ - ٧٦ .

(٣٨) علم اللغة العربية : ٢٥٤ .

(٣٩) البيان والتبيين : ١٣٩/١ .

(٤٠) تاريخ النقد الادبي عند العرب - نقد الشعر , الدكتور احسان عباس , ط١ , دار الامانة مؤسسة الرسالة , بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م , ص ١٤ - ١٥ .

(٤١) البيان والتبيين : ١١٥/١ .

(٤٢) تكوين العقل العربي : ٨٨ .

(٤٣) العربية , يوهان فك , ترجمه : الدكتور رمضان عبدالتواب , نشر : مكتبة الخانجي بمصر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م , ص ١٠٩ .

(٤٤) البيان والتبيين : ١٨/١ - ٢٠ .

(٤٥) نفسه :٦٩/١ - ٧٤ .

(٤٦) نفسه : ١٦١/١ - ١٦٥ .

(٤٧) صفة جزيرة العرب , الحسن بن احمد الهمداني , قام بنشره : المؤرخ محمد ابن عبدالله بن بليهد النجدي , مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ , ص ١٣٤ .

(٤٨) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم, نشر: دي غويه , ليدن ١٩٠٦ , المقدمة : ٠١

(٤٩) احسن التقاسيم : ٢٠٣ ,٢٤٣.

(٥٠) نفسه : ١٨٣ .

(٥١) العربية : ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٥٢) اللغة والمجتمع , الدكتور علي عبدالواحد وافي , دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة ١٩٧١ , ص ٩١ .

(٥٣) لحن العامة والتطور اللغوي :٣٢ .

(٥٤) نفسه .

(٥٥) التطور النحوي للغة العربية , ج . برجشتراسر , اخرجه وصححه وعلق عليه : الدكتور رمضان عبدالتواب , نشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م , ص ٢٠٥ .

(٥٦) نفسه .

(٥٧) علم اللغة العربية : ٩١ - ٩٢ .

(٥٨) نحو وعي لغوي ,الدكتور مازن المبارك, مؤسسة الرسالة - بيروت ١٣٩٩هـ-

١٩٧٩م , ص ١١٢ .

(٥٩) تهذيب اللغة , ابو منصور الازهري , حققه وقدم له : عبدالسلام محمد هارون , دار القومية العربية للطباعة , القاهرة ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤م ,١/٧ .

(٦٠) الخصائص : ١/ (مقدمة المحقق : ١٧) , ٧٧, ٢٥١ .

(٦١) تكملة المعاجم العربية , نشر في كل من القاهرة وبيروت في عدة اجزاء

(٦٢) اللغة العربية عبر القرون , الدكتور محمود فهمي حجازي , المكتبة الثقافية (١٩٧) .

(٦٣) علم اللغة العربية : ٣٠٦ - ٣٠٨ .

(٦٤) اللغة والمجتمع : ٩٣ - ٩٤ .

(٦٥) علم اللغة العربية : ٢٢ - ٢٣ .

(٦٦) التخلف الفكري وابعاده الحضارية , د . فؤاد زكريا , ضمن : ندوة ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي - نيسان ١٩٧٤ , ط١ , الكويت - صيف ١٩٧٥ , ص ١٦٨ .

(٦٧) التخلف الفكري وابعاده الحضارية : ١٦٨ .

(٦٨) الثقافة العربية اليوم ومسالة الاستقلال الثقافي , د. محمد عابد الجابري , مجلة الاديب المعاصر - الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق , العدد - ٤٥ , بغداد - صيف ١٩٩٣ , ص ٥ - ٧ .

(٦٩) الثقافة العربية اليوم ومسالة الاستقلال الثقافي :٨ - ٩.

(٧٠) نفسه : ٩ .

(٧١) نفسه .

(٧٢) نفسه : ١٠ .

(٧٣) علم اللغة العام : ٢٧ .

(٧٤) علم اللغة العربية : ٣٣ .

(٧٥) تكوين العقل العربي : ٨٠ .

(*) تقرير منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) , نشر : القسم العربي بهيأة الاذاعة البريطانية , اب ١٩٩٤ .

(٧٦) ينظر مثلا : قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية في العراق , ضمن : نحو لغة عربية سليمة , وزارة الثقافة والفنون - بغداد ١٩٧٨ , ص ٨-١٠ .

(٧٧) علم اللغة العربية :٢٨ .

(٧٨) نفسه : ٢٠ .

(٧٩) الفاظ العلوم بين لسان العرب وكلام العجم , الدكتور جلال شوقي , حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية , العدد , (١١) , جامعة قطر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م , ص ١٠٥ .

(٨٠) نحو وعي لغوي : ١٦٤ .

(٨١) الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ - ١٩٧٠ , س. موريه , ترجمه وعلق عليه : الدكتور شفيع السيد والدكتور سعد مصلوح , دار الفكر العربي - القاهرة , ص ٤٦٢ .

(٨٢) تيسير الكتابة العربية , مجمع اللغة العربية , القاهرة - ١٩٦١ , ص ٧, ٢٠ .

(*) تقرير منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) عام ١٩٩٤ .

(٨٣) علم اللغة العربية : ٣٥ وما بعدها .

(٨٤) نحو وعي لغوي : ١٦٤.

(٨٥) تكوين العقل العربي : ٧٩ .

(٨٦) نفسه : ٨٠ .

(٨٧) الشعرية العربية , ادونيس , ط١ , دار الاداب - بيروت ١٩٨٥ , ص ٨٨ .

(٨٨) نفسه : ٨٩ .

(٨٩) للاحاطة بجوانب الموضوع , ينظر : ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي

العربي نيسان ١٩٧٤ , ط١ , الكويت – صيف ١٩٧٥ .
(٩٠) اللغة والمجتمع : ٧٨ .
(٩١) نحو وعي لغوي : ٥٠ .
(٩٢) نفسه :٥١ .
(٩٣) تجديد الفكر العربي , الدكتور زكي نجيب محمود , ط٥ , دار الشروق , بيروت – القاهرة , ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م , ص ٢٠٥ .

رابعا مصادر البحث

– احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم , محمد بن احمد المقدسي : دي غويه , ليدن ١٩٠٦ .

– الفاظ العلوم بين لسان العرب وكلام العجم , الدكتور جلال شوقي , حوليه كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية , العدد (١١) , جامعة قطر – الدوحة ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م .

– الامتاع والمؤانسة ابو حيان التوحيدي , صححه وضبطه , احمد امين واحمد الزين , مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر , القاهرة ١٩٤٢ .

– البرهان في علوم القرآن , محمد بن عبدالله الزركشي , تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم , ط٢ – ١٣٩١ هـ ١٩٧٢ م.

– البيان والتبين , ابوعثمان الجاحظ , تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون , ط٥ , نشر : مكتبة الخانجي , القاهرة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

– تاريخ النقد الادبي عند العرب – نقد الشعر , الدكتور احسان عباس , ط١ , دار الامانة ومؤسسة الرسالة , بيروت ١٣٩١هـ– ١٩٧١م .

– تجديد الفكر العربي , الدكتور زكي نجيب محمود , ط٥ , دار الشروق , بيروت – القاهرة , ١٣٩٨هـ– ١٩٧٨م .

– التخلف الفكري وابعاده الحضارية , الدكتور فؤاد زكريا , ضمن ندوة : ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي , نيسان ١٨٧٤ , الكويت – صيف ١٩٧٥ .

– التطور النحوي للغة العربية , ج, برجشتراسر , اخرجه وصححه وعلق عليه : الدكتور رمضان عبدالتواب , نشر : مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض , ١٤٠٢ هـ– ١٩٨٢ م.

– تكملة المعاجم العربية , رينهارت دوزي , نقله الى العربية : الدكتور محمد سليم النعيمي , نشر : وزارة الثقافة والفنون , بغداد ١٩٧٨ .

– تكوين العقل العربي , الدكتور محمد عابد الجابري , ط٤ , مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت ١٩٨٩ .

– تهذيب اللغة , ابو منصور الازهري , حققه وقدم له : عبدالسلام محمد هارون , دار القومية العربية للطباعة , القاهرة ١٣٨٤ – ١٩٦٤ .

– تيسير الكتابة العربية , مجمع اللغة العربية , القاهرة ١٩٦١ .

– الثقافة العربية اليوم ومسالة الاستلاب الثقافي , الدكتور محمد عابد الجابري , مجلة الاديب المعاصر , الاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق , العدد (٤٥) بغداد صيف ١٩٩٣ .

– الخصائص , صنعة ابي الفتح عثمان بن جني , تحقيق : محمد علي النجار , ط٤ , الهيأة المصرية العامة العامة للكتاب ودار الشؤون الثقافية العامة , بغداد ١٩٩٠ .

- الشعر العربي الحديث ١٨٨٠ - ١٩٧٠ , س. موريه , ترجمة وعلق عليه : الدكتور شفيع السيد والدكتور سعد مصلوح , دار الفكر العربي - القاهرة .
- الشعرية العربية , ادونيس , ط١ , دار الاداب - بيروت ١٩٨٥ .
- صفة جزيرة العرب , الحسن بن احمد الهمداني , نشر : المؤرخ محمد بن عبدالله ابن بليهد النجدي , مطبعة السعادة , مصر ١٩٥٣ .
- ضحى الاسلام , احمد امين , ط٦ , مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر , القاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .
- طبقات فحول الشعراء , محمد بن سلام الجمحي , قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر , مطبعة المدني - مصر .
- عبقري من البصرة , الدكتور مهدي المخزومي , ط٢ , دار الرائد العربي , بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- العربية , يوهان فك , ترجمه وقدم له , الدكتور رمضان عبدالتواب , نشر : مكتبة الخانجي بمصر , ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .
- علم اللغة العام , فرديناند دي سوسور , ترجمه : الدكتور يوئيل يوسف عزيز , دار افاق عربية , بغداد ١٩٨٥ .
- علم اللغة العربية , دكتور محمود فهمي حجازي , نشر : وكالة المطبوعات -الكويت.
- قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية , ضمن : نحو لغة عربية سليمة , وزارة الثقافة والفنون - بغداد ١٩٧٨ .
- القرآن الكريم
- لحن العامة والتطور اللغوي , الدكتور رمضان عبدالتواب , ط١ , القاهرة ١٩٦٧ .
- لسان العرب , ابن منظور الافريقي المصري, دار بيروت للطباعة والنشر , بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .
- اللغة , ج .فندريس , تعريب : عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص , مطبعة لجنة البيان العربي ,القاهرة ١٣٧٠ هـ -١٩٥٠م .
- اللغة العربي عبر القرون , الدكتور محمود فهمي حجازي , دار الكاتب العربي للطباعة والنشر , القاهرة ١٩٦٨ .
- اللغة في المجتمع , م . م. لويس , ترجمة : الدكتور تمام حسان , مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٥٩ .
- اللغة والمجتمع , الدكتور علي عبدالواحد وافي , دار النهضة مصر للطبع والنشر , القاهرة ١٩٧١ .
- المزهر في علوم اللغة وانواعها , جلال الدين السيوطي , شرحه وضبطه . محمد احمد جاد المولى ورفيقاه , مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه , مصر .
- معجم الفاظ القرآن الكريم , مجمع اللغة العربية , ط٢ , الهيأة المصرية العامة للتاليف والنشر , القاهرة ١٣٩٠ هـ-١٩٧٠م .
- نحو وعي لغوي , الدكتور مازن المبارك , مؤسسة الرسالة , بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .